د. أحمد خالد توفيق

حاصل على
الجائزة العربية
مصطفى عزوز
لأدب الطفل
2018

الميرانتي

أمير البحار





الميرانتي أمير البحار

د.أحمد خالد توفيق





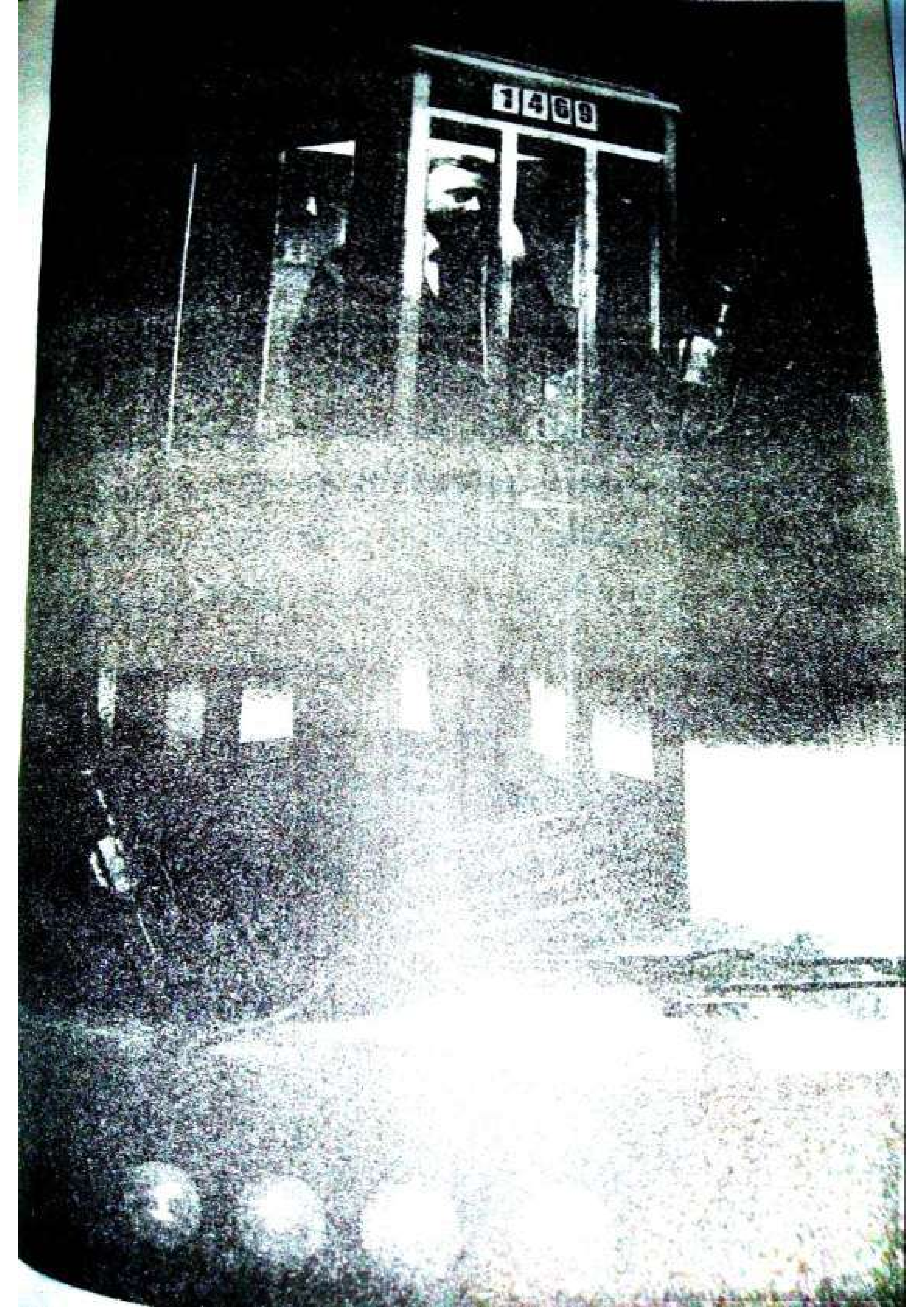
مهمة صحفية

فور ريد

اسمي مازن...

المهنة صحفي، لكنني صحفي يملك طريقة غير تقليدية لإجراء الحوارات الصحفية، والسبب هو امتلاكي تلك القُمرة الصغيرة التي لو كنا في قصة خيال علمي لأطلقنا عليها «آلة الزمن». تشبه آلة الزمن التي اخترعتُها كابينة الهاتف تمامًا، وفيها باب زجاجي تغلقه على نفسك، ثم تحرك قرصًا تختار به العام والشهر واليوم والساعة بدقة بالغة، يتم الانتقال في غضون دقائق لتجد نفسك في العالم الذي اخترته، بعد هذا تتوارى الآلة عن العيون... تصير خفية لا يراها أحد سواي، وهذا يضمن لي ألّا يعبث بها عابث أو يدمرها أحد.

أنا من اخترع آلة الزمن هذه؛ لأنني مختص في الفيزياء وميكانيكا الكم، وهناك شخص واحد على ظهر الأرض يعرف الحقيقة؛ هو مديري في العمل الأستاذ صبري؛ لهذا عندما آتيه بلقاء


1469

فهو يهتم بالأمر جديًا ولا يعتبرها شطحات من عقل استبد به الخيال.

الأستاذ صبري يحبني ويعرف أنني أَمْنُ صحفي لديه، اليوم استدعاني لمكتبه في الجريدة حيث كان يراجع بروفات العدد القادم من الجريدة، وعندما دخلت أمرني بالجلوس ثم قال لي:

- ادخل يا مازن... ماذا تعرف عن الميرانتي؟

بالطبع لا أعرف أي شيء، ما هو؟ مَن هو يا سيدي؟

قال مديري العزيز:

- بأمانة لا أعرف ما هو... هذا اسم يتكرر كثيرًا في أدب الغربيين، ويقولون إنه رجل عربي عظيم.

سألته في تأدُّبٍ:

- هل يمكنك تضييق الدائرة بعض الشيء يا سيدي؟

قال وهو يراجع الأوراق:

- المعلومات أنه وجد حوالي عام ١٤٦٩م، هذا كل ما لديّ عنه...

ثم أردف:

- أعتقد أن له علاقة بالرحالة البرتغالي «فاسكو دي جاما»؛ لذا أرى أن هذه ستكون نقطة البداية، سوف تذهب هناك ثم تعود لي بمقال كامل عن هذه الميرانتي الذي يُجلّه العرب.

كانت مهمة عسيرة لكن لهجته كانت قاطعة، من ثم عدت لداري أدبّر أموري لرحلة قد تطول.

في الثامنة مساءً دخلت إلى آلة الزمن، وأخذت نفسًا عميقًا ثم شغّلت القرص على العام ١٤٦٩م، ودعوت الله أن تكون رحلتي سهلة.

بدأت المباني تختفي من حولي... وراحت مبانٍ قديمة تظهر ثم تنقرض... غابات تغطي العالم ثم تنكمش... أنهار تفيض ثم تغيض، كنت أرجع في الزمن بسرعة غير عادية نحو زمن الميرانتي؛ العام ١٧٥٠... العام ١٦٠٥... العام ١٥٤٧... العام ١٤٦٩...

اضغط على الفرملة بسرعة.

فاسكو دي جاما

وجدت نفسي أقف على ظهر سفينة عتيقة تشق عنان المحيط، وقد فتحت أشرعتها، الأشرعة تحمل علامة صليب غريب أقرب لصليب مالطة، وكنت قد أدركتُ أن آلة الزمن توارت غالبًا في قاع السفينة.

كان منظري غريبًا وقد التفَّ البحارةُ حولي يتكلمون وعيونهم متسعة من الدهشة، فضغطت على زر جهاز الترجمة الذي يميِّز اللغة ثم يحولها للعربية، كانوا بحارة عتيقي الطراز شديدي الفظاظة، لكنك تدرك على الفور أنهم غربيون. عرف الجهاز أن هذه هي اللغة البرتغالية وعرف أنهم يقولون:

- عفريت !... لا بد أنه شيطان ! تأمل ملابسه!

هنا ظهر رجل ضخم الجثة شرير المنظر له أنف كبير معقوف.

شقَّ الصفوف وكانت ثيابه فاخرة وسلطته عظيمة فأدركت أنه القبطان، لما رآني هتف:

- من جاء بك فوق سفينتي «ساو جابرييل»؟

كان عليّ أن أجد جوابًا بسرعة، فقلت له:

- أنا صحفي يا سيدي، أي إن مهمتي تسجيل بطولاتك للأجيال القادمة.

بدا وأن هذه الإجابة راقت له، وأمر الرجال بأن يجلبوا لي ثيابًا لائقة بدلًا عن ثياب المهرجين التي ألبسها، لا أعرف كيف فهم لفظ «صحفي» لكن يبدو أنه فهم أنني أقرب للشاعر.

كانت السفينة برتغالية، وفي ذلك العصر كانت القوتان العظميان المعروفتان هما إسبانيا والبرتغال، ثم جاءت بعدهما إنجلترا وفرنسا.

كان من السهل أن أستنتج من الزمن الذي اخترته أن هذا هو الرحالة البرتغالي الكبير «فاسكو دي جاما»، وهو شخص غير ودود أقرب للشراسة.

من الغريب عندما مد يده القوية يصافحني

أن رائحة كفه كانت تفوح برائحة الفلفل الأسود، والنتيجة أنني عطست عطسة قوية فراح يضحك وقال:

- إنني أملك في قُمرتي الكثير من الفلفل الأسود وأملأ جيوبي به، أنا ثري جدًا.

خلفيتي التاريخية جعلتني أعرف أنه يتكلم عن الفلفل الأسود، يمكنه شراء قارة كاملة بكل هذا الفلفل، والسبب أننا نعيش في عصر ازدهار التوابل، الإنسان قد فطن إلى أن مذاق الطعام يصير أفضل بالتوابل، لكن التوابل لا توجد في كل مكان...

دونك ودونها محيطات ورحلات في بحار هائجة وقارات تسكنها قبائل متوحشة؛ لهذا كانت القرفة أو الكاري أو الزنجبيل أو الفلفل الأسود أغلى من الذهب والفضة بمراحل.

رحلات البحث عن توابل كانت تقود لبلاد لا يعرفها أحد، وكانوا يضمون هذه الأماكن إلى أملاك الملك «مانويل الأول» العظيم.

كان هذا الزمن مبكرًا جدًا؛ لذا لم تكن هناك نظارات مقربة أو تلسكوب بعد، لم يكن جاليليو قد اخترع التلسكوب بعد.

لذا كانوا يعتمدون على الخرائط ونجوم الليل والمُراقِب الذي يقف على سارية عالية تريه أميالًا من المياه.

كان «فاسكو دي جاما» قبطانًا بارعًا لكنه كذلك سليط اللسان شديد العريكة.

***

في ذلك الزمن كان الطريق الوحيد للوصول للهند هو البر، تخيل أن تقطع رحلة عسيرة مرعبة من البرتغال «عبر ثلاث قارات» لتصل إلى الهند.

جربوا الإبحار على ساحل إفريقيا ولكن كانت الرحلة طويلة جدًا... يبدو كأن القارة الإفريقية تمتد إلى الأبد للجنوب وبلا نهاية، ولم يكونوا يعرفون بوجود رأس الرجاء الصالح الذي يوجد في أقصى جنوب إفريقيا، وهو يسهل الانتقال من

المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي.

وصل بارتلميو دياز إلى أقصى الجنوب... إلى طرف الفك السفلي للجمجمة الإفريقية، وكانت رحلته عنيفة جدًّا حتى أنه أطلق على المكان اسم «رأس الأعاصير»، ثم اكتشف أنه لو دار حول هذه النقطة لبلغ الجانب الآخر من الجمجمة. عندما عاد لملك البرتغال سُرّ الملك جدًّا بهذا الكشف وغير اسم «رأس الأعاصير» إلى «رأس الرجاء الصالح».

لكن الطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ظلّ مبهمًا، كان على «فاسكو دي جاما» أن يجد هذا الطريق، ثم يتخلص من التجار المسلمين الموجودين في كل مكان هنا.

في العام ١٤٦٩ خرج أسطول «فاسكو دي جاما» يبحر في المسارات التي جربها بارتلميو دياز من قبل، والجائزة الكبرى هي الهند.

***





أما عن لقائي بالقراصنة لأول مرة في حياتي فقصة جديرة بأن أحكيها هنا.

كانت هناك سفينة على مرمى البصر بلا علامات من أي نوع، لكنها بالغة السرعة، وقد خرج «دي جاما» إلى السطح يراقب هذا المشهد، ثم صاح بلهجة الخبير:

- «هؤلاء قراصنة... أنت ستنعم بخبرة لم تراها من قبل».

لم يكن علم القراصنة ذو الجمجمة والعظام قد اخترع بعد.

ثم صاح بأعلى صوته:

- «استعدوا للقتال !... دينار لمن يظفر برأس قائدهم!... أريد أن نلاقيهم رأسًا لرأس!».

ودارت السفينة العملاقة وزادت من سرعتها متجهة نحو سفينة القراصنة...


فور ريد
معركة مخيفة

رغم ضخامة السفينة البرتغالية - سفينتنا - فقد بدت ثقيلة الحركة أمام رشاقة سفينة القراصنة. كنت مذعورًا أرتجف عندما طار خطاف عملاق في الهواء وتشبث بخشب سفينتنا ثم طار خطاف آخر، وحط فوق الحبال.

ركض رجال سود خفيفو الحركة كالقردة، عراة الجذوع، بين أسنان كل منهم سيف أو خنجر... أقوياء البنية كالوحوش، شرسون كالتماسيح...

كانوا قد تربوا على القتل وقد أعملوه في بحارة سفينة «دي جاما» البرتغاليين.

من الواضح أنهم من السكان الأصليين لهذه المياه، وقد انطلقوا يعملون الطعن والذبح في البحارة...

قال «دي جاما» وهو يعتمر سيفين بتارين:

- «قاتلوا أو موتوا !!»

أما أنا فتواريت خلف سارية وأنا أرتجف، لو سيطر القراصنة على السفينة فعليّ أن أثب وأترك للمحيط أن يحدد مصيري الأسود، لعل الأسماك أرفق بي من القراصنة.

كان «دي جاما» يطعن في كل اتجاه وهشم أكثر من رمح بينما عيناه تشعان نارًا.

ظهر من بين صفوف القراصنة عملاق أسود، أعور يحمل بلطة هائلة الحجم، كان مخيفًا لدرجة أن القراصنة أفسحوا له الطريق مذعورين، هوى على سيف «دي جاما» الأول فهشمه ثم هوى على السيف الثاني فأطاره من يده.

تراجع «دي جاما» للخلف أمام العملاق الذي لا قِبل به... تراجع حتى لم يعد خلفه سوى حاجز السفينة.

رفع العملاق البلطة، وهنا أبرز «دي جاما» من حزامه غدارة عتيقة وصوبها لرأس العملاق فألهب رأسه بالرصاص. هوى جبل اللحم والعضلات فسال الدم وتناثر.

ابتسم «دي جاما» ثم انحنى ليلتقط سيفًا من بين جثث الموتى.

بدأت أدرك بوضوح أن كفة البرتغاليين هي الأعلى، إنهم المنتصرون، بل إن بعض البرتغاليين عبروا إلى السفينة القراصنة وشرعوا في نهبها!... سعيد الحظ هو من نهب سفينة قرصان فهي محملة بالكنوز المنهوبة.

الضحية تستولي على مال اللص !... ورغم هذا لا يخلو الموقف من العدل.

عندما انتهى القتال قام رجال «دي جاما» بقذف سفينة القراصنة بالمشاعل وبراميل الخمر وهكذا تحولت السفينة إلى شعلة ملتهبة ترتفع لعنان السماء... كان من حظ هؤلاء القراصنة الأسود أنهم اختاروا سفينة «فاسكو دي جاما» للنهب... والنتيجة أنهم قُتلوا ونُهبوا...

ثم وقف «دي جاما» لاهثًا يلوح بسيفه المخضب بالدم، وصاح في رجاله اللاهثين المخضبين بالدم:



- «أحسنتم!... المزيد من المجد للبرتغال!»

كانوا محملين بالغنائم لهذا لم يستطيعوا التلويح بأسلحتهم ولا حتى الهتاف...

ضيف فوق العادة

كان «فاسكو دي جاما» يتحرّق شوقًا لأن يفعل شيئًا جديدًا، لكنه في كل مرة يصطدم باسم بارتلميو دياز مكتشف رأس الرجاء الصالح، لقد وصل إلى مومباسا وماليندي لكن هذا ما فعله دياز بالضبط.

مشكلة البرتغاليين هي أنهم لا يعرفون الكثير عن هذه المياه، الخرائط كلها قديمة تعود لعصر بطليموس والإبحار بها انتحار، من جربوا استعمال هذه الخرائط لم يعودوا من رحلتهم للهند قط.

كنت هناك في قمرته بالسفينة حيث الخرائط المتناثرة وحيث زجاجات الخمر، وقد علمه السُّكر أن يقول كل هواجسه بصوتٍ عالٍ حتى أنني صرت أعرف كل ما يفكر فيه.

نصحه البحارة الهنود بأن يستعين بالعرب فهم خبراء بالبحر، لكنه ثار وضرب المنضدة:

- «أنا لا أثق بهؤلاء الهمج!... لن أتعاون معهم أبدًا».

***

نحن نقف منذ فترة في ماليندي، وهي مدينة إفريقية تطل على المحيط الهندي، وكانت مليئة بالبحارة العرب، هناك وقفت سفينتنا نحو شهر.

كان «دي جاما» في موقف خطر فالخرائط قديمة وهو يتحرّق شوقًا للوصول إلى الهند من هنا. هذا هو الشيء الذي سيضيفه لتاريخه. لكن الخطوة خطرة قد تنتهي به طعامًا للسمك.

كان واقفًا على سطح السفينة يراقب البحر وهو يغلي غيظًا من الوقت، عندما صاح الناضورجي أن هناك قاربًا صغيرًا يقترب قادمًا من الساحل.

انتظر بعض الوقت وسرعان ما رأى على ظهر القارب بحارًا يجيد البرتغالية، وقد صاح مناديًا:

- «هناك تجار مسلمون يرغبون في الصعود لتحية القبطان «فاسكو دي جاما» العظيم!».

بدا الغيظ على وجه «دي جاما» ونظر إليّ وقال:

- «أنت عربي لكني أقدّر أنك ستفهم وجهة نظري... أنا لا أطيق العرب ولا أطيق وجودهم في بحر العرب؛ لهذا لا أتحمل فكرة أن يصعدوا إلى سفينتي، هذه إهانة لملك البرتغال».

تمالكت أعصابي من الغيظ، على الصحفي أن يظل محايدًا...

مددت يدي أتناول خارطة على المنضدة، كانت مليئة برسوم بلهاء وخطوط طفولية وصور شياطين وتنانين، لكن الحق يقال إنها كانت جميلة.

قلت له:

- «العرب يعرفون هذه المياه... لكن هذه الخرائط البرتغالية جديرة بمدارس الأطفال، إنها موضوع قصص ممتعة تقصها عليهم قبل النوم».

قال في تحد:

- «العرب لا يعرفون غير الصحراء والرمال،

ليست لديهم اي خبرة بالبحر».

ثم راح يداعب لحيته الكثة بعض الوقت مفكراً... مع بسمة وحشية بدأت ترتسم على ملامحه ثم قال:

- «ولكن... لم لا؟... الإبحار ممل والحياة كئيبة... بعض المزاح لن يؤذي أحداً... فلنر ما سيقولون ولسوف نضحك كثيراً...».

ثم نظر إلى البحار الضخم الذي جاء يبلغه، وصرخ كأنه أسد يزأر:

- «أما زلت هنا يا أحمق؟... لماذا لم تبلغ هؤلاء التجار أنني في انتظارهم؟».

***

كانت ثياب التجار العرب فاخرة ومميزة تدل على الثراء، كانوا ستة في الستين من العمر، أما «دي جاما» فقد أرتدى أفخم ثيابه وقبعته ذات الريش، ووقف كالوحش على ظهر سفينته.

وكان هناك مع العرب ذلك البحار الذي يجيد

البرتغالية وقد جاء للترجمة.

- «سلام على القبطان العظيم... شرف لنا أن تكون ضيفنا!».

كانت هذه العبارة أسوأ بداية ممكنة بالنسبة له؛ لأنه لم يعتبر أن العرب يملكون أي حق في ماليندي، فكيف يرحبون به باعتباره ضيفًا؟؟؟

نظر إلى العرب نظرة متفهمة فقد أدركوا أنني عربي مثلهم، وهمس أحدهم بالسلام.

مشى العرب ومعهم «دي جاما» وقواده وقد بدا واضحًا أنه ينوي أن يتسلى بهؤلاء الهمج قليلًا.

في قمرة القبطان كانت هناك لوحة زيتية عملاقة له وصورة لملك البرتغال، وخرائط بحرية ومخدع فاخر مريح، أشار للفرجار والمسطرة وقال:

- «الملاحة فن معقد يستدعي حسابات طويلة».

كان أحد التجار العرب ضئيل الحجم يتأمل

الخارطة وهو يعبث بلحيته ثم قال:

- «عمل فني متقن... جميلة جدًا، لكن لا قيمة لها كخارطة، أعتقد أنك تضعها هنا كتحفة فنية لا أكثر».

نظر إليه «دي جاما» قليلًا ثم ابتلع ما يريد قوله، واتجه إلى بعض الأدوات فالتقط «أسطرلابًا» خشبيًا ورفعه في فخر أمام العيون في ضوء الشموع وقال:

- «هذا يُدعى أسطرلاب... وهو مهم للبحار جدًّا».

تناول ذاك العربي الأسطرلاب ووضعه في كفه وتأمله للحظة ثم ألقى به على المنضدة وقال:

- «أسطرلاب... لكنه شديد البدائية... أنا صنعت «أسطرلابًا» من النحاس يمكن أن أهدي واحدًا منه للقبطان... لديَّ كذلك مزولة ممتازة صنعتها بنفسي!...».

نظرتُ بسرعة لـ«دي جاما» فوجدته ينفخ من

الغيظ، احتقنت عروق رقبته واحمر وجهه، وسأل التاجر متمالكًا أعصابه:

- «ما اسمك يا سيد؟»

- «أنا عبدالله الفقير أحمد بن ماجد... من جلفار».

مال «دي جاما» عليه وسأله في صوت خفيض:

- «أنت بحار... فهل تعرف الطريق إلى الهند؟».



قال العربي:

- «طبعًا».

- «أتكلم من ساحل إفريقيا الشرقي... هل يمكنك السفر للهند؟».

- «أؤكد لك يا قبطان».

هنا صاح «دي جاما» بصوت ارتجت له السفينة:

- «إنني أعلن أن هذا العربي سيكون دليلنا الى الهند... كنت مخطئًا عندما حسبت العرب

يجهلون البحر، الرجل الذي يصنع أسطرلابًا بهذه الدقة والبراعة قد خُلق كي يكون دليلنا!!».


فور ريد
الميرانتي «أمير البحار»
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

تقلع السفينة فاردة شراعها مغادرة ماليندي.

في الأيـام التاليـة أصبـت بـدوار بحـر رهيـب، لكـن حينـما اسـتطعت أن أتمالـك نفسي أخـيرًا بـدأت أراقـب سـير الأمـور، كان «دي جامـا» فظًـا خشـنًا وهـذا يتناسـب مـع مسـؤولياته الكثـيرة، لكنـه بالفعـل معجـب بذلـك العـربي «ابـن ماجـد» الـذي صـار مرشـد الرحلـة إلى الهنـد، وكان مـن حقـه أن يقابـل القبطـان متـي شـاء.

لقـد صـار وجـه «ابـن ماجـد» مألوفًـا هنـا بجسـمه الضئيـل وعمامتـه وضحكتـه، وقـد سـماه البرتغاليـون «المعلـم الفلـكي». لم يسـتطيعوا نطـق العبـارة فخرجـت مـن أفواههـم «ماليمونـكا»، كذلـك حاولـوا تسـميته «أمـير البحـار» فخرجـت الكلمـة «الميرانتـي».

الآن عرفـت مـن أيـن جـاء هـذا الاسـم الغريـب،

«الميرانتي» هو نفسه «أحمد بن ماجد».

في تلك الليلة رأيته يقف مع القبطان والضباط على ظهر السفينة... كانت السماء مرصعة بالنجوم بذلك الشكل الخام المذهل، حيث تدرك للمرة الأولى أن في السماء من النجوم أكثر مما فيها من الظلام... نجوم يمكنك أن تقرأ على ضوئها، ولو مددت يدك لقطفت بعضها لتهديه لحبيبتك...

كان «ابن ماجد» واقفًا يشرح للقبطان خارطة النجوم وكيفية الاهتداء بها... كان يعرف موضع كل نجم وكيف تعرف اتجاهك عن طريقه، وخُيل للرجال أن هذا الرجل ليس بحاجة إلى بوصلة من أي نوع...

قال «فاسكو دي جاما» في رضا:

- «هذا علم جديد علينا بالكامل يا ماليمونكا... يجب أن نكتب كل ما قلت كي لا ننساه...».

كان قد شرح لهم أمس الرياح الموسمية وكيف

يمكن استغلالها، كما شرح لهم المد والجزر ودور القمر فيه... قبل يومين عرض عليهم الحقة الملاحية التي ابتكرها، و«الحقة» هي الترجمة العربية للفظة «بوصلة»، وكيف علق الإبرة الممغنطة على محور لتتحرك حركة حرة مع هياج البحر... هكذا تعرف السفن طريقها وسط أعتى العواصف...

كان «دي جاما» مندهشًا من أن يملك «ابن ماجد» الذي قضى حياته في الصحراء كل هذا العلم، لكن الحقيقة هي أن «ابن ماجد» لم يعش في الصحراء، كان قد قضى خمسين عامًا من حياته في الخليج العربي على ظهر السفن.

استطعت جمع بعض المعلومات عن «ابن ماجد» في حوار مباشر معه في ليلة صافية...

قال لي:

- «أنا «شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن الحسين بن أبي معلق السعدي بن أبي

الركائب النجدي»!!. ولدت في «جلفار» عام ١٤٢١ بالتقويم الغربي وعام ٨٤٠ الهجري... أنا من أسرة مولعة بالبحر، وقد نشأت على هذا الفن منذ نعومة أظفاري... أبي يطلقون عليه اسم «ربان البرين»... حتى في زمانك المعاصر سيظل بعض البحارة الخليجيون يهتف عندما تبدأ سفينته الإقلاع: «الفاتحة لابن ماجد»... برغم أنهم لا يذكرون عني أي تفاصيل...

«لي مؤلفات عديدة في عالم البحر، ولسوف يحتفظ معهد الدراسات الشرقية في «لينينجراد» بمخطوطة لي بالعربية أصف فيها سبل الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

إنها مكتوبة شعرًا كلها كما هي العادة في زمننا...»

«على أنني مندهش من جهل البرتغاليين المروع بعلوم البحر، هم لا يعرفون أي شيء عن علم الملاحة».

***

مرّت الرحلة بسلام وإن سادها جو من محاولات البحارة السخرية من هذا البحار العربي، لكنهم لم يتمادوا طبعًا؛ لأنه تحت حماية القبطان شخصيًا، كما أنه لا يشرب الخمر ولا يرقص معهم وهو ما أثار غيظهم.

عن نفسي لم يتحرش البحارة بي؛ لأنهم خمنوا أن مهنة الصحفي مهمة جدًا، ولسوف أمنحهم الخلود يومًا ما عندما أكتب عنهم.





العاصفة



قال «دي جاما» وهو يرمق البحر الثائر:

- «المحيط الهندي ثائر غاضب؛ لأننا أوشكنا على أن نهزمه... لهذا يثور ثورته الأخيرة».

ثم لوح بقبضته في وجه العواصف وهتف:

- «هلم أيها الأحمق... هل هذا أقوى ما لديك؟ لسوف نمرح معًا...».

الطبيعة غاضبة، وعندما تغضب فهي لا ترفق ولا تكظم غيظها، تصور أن تواجه هذا الهول على سفينة برتغالية تنتمي للقرن الخامس عشر! الصحافة مهنة المتاعب فعلًا.

السماء سوداء بالمعنى الحرفي للكلمة، فقط تشقها ألسنة البرق من حين لآخر... ثم يظهر جبل أسود قادم من بعيد... يجب أن تصدق أنه قادم... يجب أن تصدق أنه سيمر من تحتك وأنك ستعلو حتى تبلغ عنان السماء ثم تهوي



في حفرة سحيقة سوداء، وعليك أن تظل حيًا وفي وضع رأسي...

يمر الجبل، لكن جبلًا آخر يلحق به قبل أن تلتقط أنفاسك... لقد طووا القلوع كلها وغيروا اتجاه السفينة...

كنت أسمع صياح «ابن ماجد» في الخارج وهو يصدر تعليماته للبحارة... لقد أجاد الكثير من البرتغالية وهم أجادوا الكثير من العربية. يربط نفسه بالحبال إلى سارية حتى لا تطيره الأمواج، وكذا يفعل الرجال وإلا لغابوا في المحيط.

أسد البحار يزأر...

يعتبر نفسه مسؤولًا بالكامل عن سلامة هؤلاء؛ لأنه اقتادهم إلى هذه المياه...

كان «فاسكو دي جاما» جالسًا في هدوء يكتب في دفتر السفينة على ضوء الشمعة... حتى محبرته لا تهتز... كأنه ينتمي لعالم آخر شديد الهدوء... قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه...

قال لي في هدوء:

- «لا تقلـق... شـجاعة هـذا الرجـل خارقـة، وبراعتـه ليسـت موضـع شـك... إنـني لأضع سلامتي في يديـه، وليكـن في معلومـك لم يحـدث قـط أن وصلـت سـفينة برتغاليـة إلى هـذه النقطـة».

قلتُ له وأنا أقاوم القيء:

- «هذه عاصفة عاتية فعلًا يا قبطان».

- «بارتلميـو ديـاز» في رحلتـه حـول رأس الرجـاء الصالـح رأى أبشـع مـن هـذا، حتـى أنـه أطلـق عليـه «رأس العواصـف»... أنـا أعيـد رسـم الخارطـة بشـكل دقيـق...».

ارتفعـت السـفينة حتـى لكأنهـا تتسـلق جبلًا كاملًا ثـم هـوت مـرة واحـدة حتـى أوشـكت كل قطعـة خشـب فيهـا أن تنفصـل.

***

في الصبـاح كانـت العاصفـة قـد هـدأت، وكان الرجـال منشـغلين بإصـلاح مـا أتلفتـه غضبـة المحيـط

يوم أمس...

رائحة الرطوبة في الجو ورائحة الخشب المبلل... رائحة الإجهاد، وذلك الصفاء الذي يلي العواصف...

كان «ابن ماجد» مرهقًا محمر العينين من فرط ما قضى الليل في التركيز والانفعال وتوجيه الأوامر، لكنه كان كذلك يتشمم الهواء من حين لآخر...

مشى إلى المقدمة ووقف متصلبًا بعض الوقت...

راح ينظر إلى البوصلة - الحقة - التي صنعها ثم خرج آلة السدس وأجرى بعض القياسات، ثم استدار ليعلن الخبر:

- «يا رفاق البحر... نحن على سواحل الهند...!».

لقد استغرقت الرحلة ٢٢ يومًا، وهو رقم قياسي في كل شيء حسب قواعد ذلك الزمن.

وأخيرًا.. وصلنا

هـرع «فاسـكو دي جامـا» إلى سـطح السـفينة وهو متلاحـق الأنفـاس مـن فـرط الانفعال.

هـذه سـواحل الهنـد فعـلًا، وسـفينته أول سـفينة برتغاليـة تدخـل هـذه المياه، الهنـد!... الـثراء غير المحـدود وأسرار الـشرق والتوابـل... هـذه أرض التوابـل، جبـال مـن الشـطة والـكاري...

يوم ٢٠ مايو عام ١٤٩٨... تذكروا هذا التاريخ...

لكنـه لاحـظ أن المينـاء يعـج بالسـفن العربيـة. بالفعـل يـأتي العـرب هنـا بكثافـة لكأنهم يـزورون محـلًا عـلى قارعـة الطريـق.

هـذه أرض تختلـط فيهـا ثمـار المانجـو بالبهـارات وبالنمـور المتوحشـة في الأحـراش، برائحـة البخـور في المعابـد القديمـة وبثعابـين الكوبـرا ورائحـة الأمطـار السنوية، وعيـون الحسـناوات الممتلئـة بالكحـل وهن يغمرن أجسـادهن في ميـاه نهـر الجانـج تقربًـا

لشيفا أو كالي... هذه هي الهند...

قال «أحمد بن ماجد» وهو يفرك عينيه:

- «هذه «كاليكوتا» في «كيرالا»... أعتقد يا قبطان أنه يجب أن أنزل أولًا... هؤلاء القوم لم يروا سفينة برتغالية في حياتهم...».

***

فرغت «راميشا» من نثر قرون الشطة الحمراء على الحصيرة أمام الدار...

سوف تحتاج إلى أيام لتجف، وبعدها يكون عليها وعلى النسوة أن يسحقنها ليحصلن على المسحوق الأحمر الذي لا يستقيم المزاج الهندي من دونه: الشطة.

مهمة عسيرة لأنها سوف تجعل يديها تحترق بالنار، لكن هذه هي حياة العذراء الهندية... فإذا تزوجت كانت هذه هي حياة السيدة الهندية...

المسجد القريب يعلن صلاة الظهر، و«راميشا»

هندوسـيـة... لكـن في ذلـك الوقـت في «كاليكوتـا» بالهنـد، شـمال ولايـة كـيرالا، لم يكـن هنـاك مـن يسـألك عـن دينـك مـا دمـت تحسـن معاملـة الآخريـن وتـؤدي لهـم حقوقهـم.

لا تخفـي أنهـا تشـعر بـسرور ونشـوة عندما تسـمع صـوت الأذان المميـز، والـذي تعتقـد أنـه أروع صـوت سمعته .

قابلـت الكثيريـن مـن العـرب... إنهـم في كل مـكان هنـا، هـم تجـار بطبيعتهـم... بارعـون حقًّـا ولهـم عيون حساسـة لما يمكـن شراؤه أو بيعـه... المهم أن هـذا كلـه يتـم في جـو مـن الـتراضي والسـماحة بـين الطرفـين...

أمـس رأت تاجـرًا عربيًّـا يلعـب مـع طفـل في الخامسـة... الطفـل يكيـل اللكمات للتاجـر الـذي جثـى عـلى ركبتيـه أمامـه، فسـقط التاجـر عـلى الأرض وكأن الضربـة آذتـه فعلًا... مـما جعـل الصبـي يضحـك حتـى سـال الدمـع مـن عينيـه...

قالت أمها وهي تنسج على النول:

- «هـذه حـركات يكسـبون بهـا النفـوس... عندمـا تكسـب الأطفـال فأنـت تكسـب أهلهـم...».

- «وماذا يريدون من كسب الأهل ؟».

- «لا شيء... فقـط يميـل العـربي إلى أن يكـون محبوبًـا في الوسـط الـذي هـو فيـه... هكـذا انتشر الإسـلام في الهنـد يـا راميشـا عـن طريـق حسـن المعاملـة ولمسـات ذكيـة بسـيطة كهـذه، بينمـا لا يمكـن للسـلاح أن يقهـر الهنـود، فهـم أقـوى مـن أي سـلاح، هـذه بـلاد مترامية الأطـراف أهلهـا شـديدو الكبريـاء والمـراس... لا يمكـن إرغامهـم عـلى أي شيء بالقـوة...».

«راميشـا» لا تعـرف هـذا ولا يهمهـا أن تعـرف لأن لديهـا مشـاكلها الخاصـة، تعـرف أن عليهـا الكثير من العمـل في شـؤون البيـت... شـؤون البيـت الهندية التـي لا تنتهـي، والتـي يعـد تجفيـف الشطة قطرة منهـا...

غـدًا سـوف تـزور المعبـد وتقـدم بعـض القرابين للكاهـن لعلـه يصـلي لهـا صـلاة خاصـة...

ضيف الراجا

ركبتُ قاربًا مع «أحمد بن ماجد» وبعض الضباط البرتغاليين إلى اليابسة. إنه ينزل من قاربه فتحييه وجوه الهنود الباسمة ويعانقه البعض، فهم يعرفونه جيدًا... إن «الميرانتي ابن ماجد» مفيد في البحر والبر بعلاقاته الكثيرة وحب الناس له.

توجه إلى مندوب الحاكم، وطلب منه الإذن لهؤلاء البرتغاليين في النزول إلى اليابسة.

قال المندوب:

- «إن أصدقاء «ابن ماجد» هم أصدقاؤنا، لكن عليك أن تطلب إذن الراجا شخصيًا...».

خرج «ابن ماجد» ومن معه ليقابل «مانافيكرامان»... الزامورين... حاكم «كاليكوتا» في قصره...

قالوا للزامورين إن «ابن ماجد» قد عاد، فبدا

الرضا على وجهه... وسمح لـ«ابن ماجد» - بعد ما سأله عن أخبار العرب وعن رحلته - بأن يجلب القبطان البرتغالي.

هنا انتفض تاجر عربي اسمه كريم... وصاح بصوت مجلجل:

- «البرتغاليون هنا؟ هؤلاء السفاحون !... هؤلاء القتلة!...

لا تسمح لهم يا سيدي الراجا، سوف يحيلون هذا البلد الجميل نارًا ودمًا... نحن نعرفهم في كل مكان وهم ليسوا غرباء علينا... البرتغالي الطيب هو الذي مات».

قال «ابن ماجد» في غيظ:

- «كونهم من بلد مختلف ولهم دين مختلف ولون بشرة مختلف لا يعني ضرورة إدانتهم...».

طالت المناقشة لكن الراجا كان أميل إلى تصديق «أحمد بن ماجد»، هؤلاء ضيوف مرهقون من رحلة البحر، فأمر «ابن ماجد» بأن يجلب له

القبطـان... بعـد سـاعة ظهـر موكـب «دي جامـا» الـذي حـرص عـلى أن يتزيـن ويبـدو فخـمًا وزيـن قبعتـه بالريـش ونفـش صـدره، الواقـع أن «دي جاما» بـدا كأنـه هـو حاكـم البـلاد. كان الهنـود مندهشين لأنهـم لم يـروا هــذا الغــرور مــن قبـل، كانـوا قـد اعتـادوا العـرب الودوديـن الذيـن لا يفكـرون إلا في التجـارة، لكـن البرتغاليـين كانـوا مليئين باسـتعراض القـوة، وهنـاك اليـوم لوحـة شـهيرة تمثـل هـذا المشـهد بالضبـط.

تصلـب الراقصـون وراحـت النمـور التـي يربيهـا الراجـا تـزأر، وسـط زئـير النمـور تعالـت بعـض الشـتائم بالبرتغاليـة يطلقهـا التاجـر العـربي:

- «لا أهـلًا بـك ولا سـهلًا أيهـا السـفاح... خـذ رجالـك وعمارتـك وارحـل».

قال الراجا وهو يتأمل «دي جاما»:

- «سـوف نسـمح لـك بالتجـارة، ونحملـك بعـض الهدايـا لملـك البرتغـال العظيـم».

جلس «دي جاما» ينظر في ذهول إلى المأدبة أمامه، كان هناك دجاج بالكاري... وكان هناك الكثير من الشطة وهناك خروف مغطى بالكسبرة والكمون والفلفل والهيل، لم يصدق أبدًا أن هذا الثراء موجود هنا.

تناول قطعة من لحم الخروف فخرجت نار الشطة من أذنيه، جرع جرعة ماء هائلة وقال لي:

- «الأمر يبدأ بالتجارة... تكون لنا امتيازات تجارية ثم نعززها بأسطول كامل».

كنت أعرف أن بريطانيا ستفعل الشيء ذاته بعد قرون، عندما تنشئ شركة الهند الشرقية، ورحت أراقب البحارة وهم يسرقون التوابل ويضعونها في جيوبهم، كل واحد صنع ثروة صغيرة من الزنجبيل وورق اللاوري والشطة.

رحت كذلك أراقب نظرات الكراهية التي يرمق بها التجار العرب «فاسكو دي جاما»... لن يخدعهم بهذا اللطف.

الفراق

مرت أيام...

ثم تقدم الميرانتي «أحمد بن ماجد» إلى القبطان «فاسكو دي جاما» ليودعه:

- «وداعًا يا قبطان... لقد أنهيت مهمتي وأنتم قادرون على العودة...».

لم يكن القبطان قادرًا على التأثر، لكنه صافح العربي بقوة وسأله:

- «عائد إلى جلفار»؟

- «بل إلى مكة... لقد اقترب موسم الحج وعليّ أن أنطلق من هنا الآن إذا أردت أن أصل في وقت مناسب...».

ثم أنه صافح البحارة وعانقهم... لقد صاروا أصدقاء بالتأكيد بعد هذه الأيام الطويلة...

ثم دنا مني وعانقني وتمنى لي التوفيق في



مقالي، فوعدته أن أقابله لدى عودته من الحج، إنها رحلة تستغرق عدة أشهر في ذلك الزمن، قالي لي:

- «هم يعرفون كيف يعودون من هنا، السلام عليكم يا أخي».

ورحت أراقبه وهو يبتعد.

رجل عربي فقير ضئيل الجسد يحمل عصا في كتفه علقت في نهايتها صرة هي كل متاعه في الحياة... رجل عربي فقير يبتعد مشيًا نحو مكة... سوف يعود إلى البحر، وسوف يخوض المزيد من الرحلات لكن المؤكد أنهما - هو و«دي جاما» لن يلتقيا ثانية أبدًا إلا في كتب التاريخ...

تعج الكتابات العربية بقصة «أحمد بن ماجد»، ولكن لا ذكر له في الكتابات البرتغالية، إلا من تلميحات لمرشد اسمه الميرانتي، وعلى الأرجح أنهم أرادوا ألا ينسبوا أي مجد للعرب، الأهم أن هناك عربًا ينفون عن «ابن ماجد» إرشاد البرتغاليين؛ لينفوا عنه تهمة أنه سهّل التفافهم

حول السواحل الإسلامية. أما عن رايي فانت ترى أنني كنت شاهدًا على كل شيء، والتقطت بعض الصور الفوتوغرافية لأعرضها في مجلتي لدى العودة.

في الميناء كان الرجال يحملون البضائع ولوازم السفر تأهبًا للعودة إلى البرتغال. لقد تم أصلاح السفينة من عناء رحلتها. هذه المرة لن يضل أحد طريق العودة.

***

في طريق العودة حدثت أشياء بسيطة تافهة مثل أن شقيق «دي جاما» قد مات... طبعًا هذا كلام فارغ لا يمكن أن يعكر مزاج القبطان... من دون الميرانتي نسي «دي جاما» القواعد التي تتحكم في الرياح الموسمية، وهذا كلفه الكثير... هكذا اضطر لعبور المحيط الهندي في ١٣٢ يومًا بدلًا من ٢٢ يومًا مع « ابن ماجد».

فارق مائة يوم يكون قاتلًا في البحر، وقد وصل إلى ماليندي من دون نصف طاقمه، ويبدو أن

السمك أحب مذاق اللحم البرتغالي...

كان الأسقربوط داءً وبيلاً يقتل البحارة، بعد ما يجعلهم ينزفون كل قطرة من دمهم وتتعفن أطرافهم، ويتجعد شعرهم وتتورم لثاتهم بحيث لا يقدرون على أكل شيء... طبعًا كان يمكن إنهاء هذا كله ببعض عصير الليمون أو البرتقال، لكن مازال أمام الطب الكثير ليتعلمه في القرن الخامس عشر، إلا أنهم نسوا أن «ابن ماجد» كان يطلب أن يشرب البحارة عصير الليمون بشكل يومي.

على كل حال كانت هذه منغصات بسيطة بالنسبة للقبطان العظيم...

إن الرجال يمكن تعويضهم، لكن المجد لا يأتي مرتين...

القائد المظفر

البرتغال...

يسرع العبيد بفرش السجاد الفارسي الثمين، وتحلق أسراب الحمام التي أطلقوا سراحها، فلينفخ في البوق ولتنثر النسوة أوراق الورد...

إن الفاتح العظيم قد عاد من رحلته مظفراً، منتفخاً كالطاووس، يلبس أفخم حلة لديه... حلة من الطراز الذي يناسب موضة العصر ويجعل المرء أقرب لجبل مقلوب، كتفان عريضتان محليان بالفراء وسروال ملتصق بالساقين النحيلتين كجوربين...

لقد عاد «فاسكو دي جاما» من الهند... ومعه توابل وكنوز لكنه حمل ما هو أهم... حمل معه الطريق إلى أغنى بلد في العالم...

هناك تقف حاشية الملك مانويل الأول، كلهم خرجوا من القصر لاستقبال أعظم مكتشف عرفوه

منذ بارتلميو دياز، الملك لا يخرج لاستقبال أحد إلا إذا كان مهمًا جدًا. وقفت من بعيد أراقب المشهد، ثم طلبت من الحراس أن يسمحوا لي بالاقتراب، واضطررت لأن أخرج بطاقة تعريف النقابة، أنا صحفي يا سادة.

هو ذا المستكشف العظيم يتقدم، والرجال يرددون بلا توقف:

- «كابو... كابو...» «قبطان... قبطان».

للمرة الأولى يتقدم الملك شخصيًا لمصافحة قبطان يعمل لديه، وهو يعانقه وينعم عليه بالألقاب:

- «أنت أهديت الهند كاملة للبرتغال... لهذا نهديك إقطاعيات في ساينز... نهديك لقب «دوم»... وهذا اللقب سوف يكون لقبك ولقب كل فرد في أسرتك إلى يوم الدينونة...».

قال «دي جاما» بوقار:

- «ليس هذا حسب... أنت إيرل فيديخيرا وأول

كونت لا يحمل دمًا ملكيًا في عروقه...».

- «هذا كثير من جلالتكم... كثير جدًا».

- «فقط أريد أن تخبرني بالقصة كاملة منذ الرحيل».

ثم جلس الملك على العرش المهيب وأمسك بكأس كبيرة من النبيذ، وكأنه ممثل عظيم يقف على المسرح ووقف «دي جاما» أمام الملك والبلاط... متظاهرًا بالاحترام لكن الفخر يوشك أن يغلبه... هذا رجل فخور لا خاشع...

- «نحن «فاسكو دي جاما» خادم «مانويل الأول» ملك البرتغال قدرنا حول رأس الرجاء الصالح كما فعل سلفنا العظيم «بارتلميو دياز»، ومنه إلى ماليندي... في هذا الوقت تمكننا من تطوير أسطرلاب حديث وحق... أ... وبوصلة ورسمنا خرائط دقيقة جدًا، كما استطعنا أن نحدد سبل الملاحة بالمحيط الهندي عن طريق الاسترشاد بالنجوم... ومن ثم انطلقنا نحو الهند حيث رسونا في «كاليكوتا» وعقدنا اتفاقيات تجارية

مع الراجا «مانافيكرامان» الذي يحمل كل ولاء وخضوع للملك العظيم...».

هتف الملك بحماس:

- «رائع... أمير البحار الهندية!... سوف نطلق عليك لقب أمير البحار الهندية...!».

ابتسم «دي جاما» في وقار وأضاف:

- «استطعنا كذلك يا مولاي أن نبرهن على أن ساحل إفريقيا الشرقى كونتراكوستا مهم جدًا لسفننا... إن «موزامبيق» ستكون مفيدة جدًا كمستعمرة للتاج البرتغالي «هللوا يا رجال...

اليوم ليس يومًا عاديًا...

إنه اليوم الذى صارت فيه البرتغال قوة كاسحة... أقوى وأغنى دولة في العالم».



بداية المذابح

في العام ١٥٠٢م عاد المستكشف الآخر بدرو الفاريس كابرال من الهند. إنه يشبه «دي جاما» تمامًا في الملامح والقسوة والغرور والملامح. عندما نزل من السفينة قدموا له دِنان الخمر. فشرب حتى بلَّل لحيته وصدر قميصه.

كان «دي جاما» ينتظره في الميناء وعانقه سائلًا عن أخبار الهند. كان هذا لقاء الديناصورات فعلًا.

كانت الأخبار سيئة. هناك خلافات ومشادات بين الهنود والبرتغاليين. البرتغاليون مغرورون وتعاملهم ليس أمينًا. وقد شعر الهنود بفارق كبير بينهم وبين التجار المسلمين.

- «لقد قصفت سواحلهم بالمدفعية... لكن هذا غير كاف».

قال لي «دي جاما»:

- «هذا يوجب أن نذهب لحماية الرعايا



البرتغاليين».

كل الاحتلال في التاريخ يبدأ بنفس الكيفية، ابدأ بالتجارة ثم افتعل حادثًا... ثم أرسل قوة احتلال لحماية رعاياك، مصر احتلها الإنجليز بذات الطريقة.

ثم نظر إليّ «دي جاما» نظرة نارية وأردف:

- «أنت مسلم... يؤسفني أن أقول هذا لكني واثق أن التجار المسلمين هم مشعلو الفتنة. المسلمون لا يطيقون وجود البرتغال هناك، والهنود دماؤهم حارة لذلك ينفجرون بسرعة، سأذهب على رأس أسطول من عشرين سفينة لفرض سيطرة البرتغال على كاليكوتا».

***

هكذا انطلقت العبارة المخيفة وأنا على ظهرها مجبر، هذه مهنتي للأسف، لقد رفض القبطان كل احتجاجاتي وأصر على بدأ الحرب، وكان الرجال يغلون غضبًا.

وفجأة صاح الناضورجي من فوق السارية:

- «سفينة عربية في الأفق!».

نظر «دي جاما» إلى البحر وابتسم بوحشية... أخيرًا جاء وقت الانتقام، صاح في رجاله:

- «استعدوا للالتحام... هذه السفينة لنا!».

سألته في كياسة:

- «مَن قال إنها سفينة مقاتلة؟... أنت قلت إنك تنوي الذهاب لتأديب «كاليكوتا» ولن تتحدث عن الق...».

لكني لم أرَ منه إلا عينين جاحظتين، لم يكن يسمع سوى صوت الانتقام والدماء والصراخ في رأسه.

كانت السفينة العربية مسالمة كيمامة، غير مستعدة لمواجهة الشياطين البرتغاليين، وسرعان ما تم الالتحام فوثب البرتغاليون ودوت صرخات ليست صرخات رجال بلا صرخات نساء وأطفال

هذه سفينة عائدة من مكة وعليها نحو ٤٠٠ من الحجاج...



كاليكوتا

تعالت النيران حتى عنان السماء...

كنت ضعيفًا جدًا وعاجزًا عن عمل أي شيء،

كانت قسوة البرتغاليين تفوق الوصف ولا داعي
لها فعلًا.

لقد قام «دي جاما» بقتل من وجده على
السطح، ثم حبس الركاب في قاع السفينة وأضرم
فيها النار!! كما ألقى رجاله المشاعل وبراميل
النبيذ على الخشب ثم ابتعدت السفينة الحربية
لتتأمل ما يدور.

استغرق احتراق السفينة العربية أربعة أيام ولم
ينج أحد ليحكي، أنا كنتُ شاهدًا كما شهد بعض
البرتغاليين فيما بعد.

في النهاية وقد استحال سطح المحيط بقعة من
النار والدخان والخشب المتفحم أصدر «دي جاما»
أمره بأن تتحرك السفينة إلى وجهتها الأصلية:

- إلى «كاليكوتا»!!

أما الرجال فقد استخف بهم المرح... إن اللحظة التي تفصل بين البحار العادي والقرصان غير واضحة، والخط الفاصل بين الاثنين يمكن عبوره دون أن تشعر... هكذا صاروا جميعًا قراصنة متعطشين للدم، خاصة إن تم هذا من أجل التاج البرتغالي...

كان «دي جاما» قد هاجم مجموعة كاملة من الموانى التي يسيطر عليها العرب... يبدو أنه كان يمارس حملة تطهير لكل موضع إسلامي على ساحل إفريقيا الشرقي...

ثم إنه هاجم كل سفينة عربية واستولى عليها وسلبها البضاعة التي تحملها...

أخيرًا يصل الأسطول البرتغالي الرهيب إلى سواحل الهند وقد تدرب على إراقة الدماء، فلم يعد يوقفه شيء...

***

عندما دخلت سفن «فاسكو دي جاما» إلى الميناء الهادئ «كاليكوتا» لم تكن في هذه المرة مراسم لكسب الثقة ولا قوارب تدنو للتعارف...

لقد رأى الهنود سفنه قادمة فادركوا أن الخطر قادم... السفن ذاتها بدت كأنها تكشر عن أنيابها أو توشك على الافتراس... قبل أن يتصايحوا منذرين بعضهم هوت أول قذيفة من مدافع «دي جاما» على سفينة راسية في الميناء، فاشتعلت النار فيها، وراح بحارتها يقفزون إلى الماء صارخين...

للمرة الأولى تنهمر القذائف على هذا الميناء الهادئ.

وانطلقت قذيفة أخرى لتهوي هذه المرة فوق بناية من خشب على الميناء فتحولت إلى فحم على الفور...

والمدينة الجميلة بقبابها ومعابدها ومساجدها ورياضها تحولت إلى جذوة من النار والدخان... نساء يركضن صارخات وأطفال يتعثرون ويبكون ورجال ينزفون...

و«فاسكو دي جاما» القبطان العظيم يقف على ظهر سفينته يرقب هذا كله بوجه من صخر...

فقط صاح في رجاله:

- «صبوا عليهم كل شيء!!».

ودوت الانفجارات من جديد...

لشد ما اختلف دخول «دي جاما» في المرة الثانية، لقد كان في المرة الأولى ضيفًا يتمنى أن يسمح له بالدخول... واليوم هو سيد جاء ليعاقب...

عندما تنقشع سحابة الدخان والموت من فوق «كاليكوتا» سوف ينزل رجاله...

عقاب «كاليكوتا»

قلت لـ«دي جاما» إن عليه أن يكتفي بكل هذا الدم، كان وضعي كصحفي يعطيني بعض الحرية في قول ما أريد وكان هو يصغي لي، لو قال له أحد آخر هذه الكلمات لأمر بجلده.

قال لي في توحش:

- «السلب والنهب نوع من حفلات الترفيه التي يجب أن تتاح من وقت لآخر للبحارة المتوترين المتعبين...».

وفي شوارع «كاليكوتا» المحترقة المهدمة راح البرتغاليون الثملون يركضون متصايحين، ويعملون السيف في كل مَن يقابلونه فلا تنجو منهم امرأة ولا رجل مسن أو حتى طفل...

لم تعد هناك شطة منثورة على الحصير لتجف.. لقد احترقت...

لم تعد هناك رائحة مانجو ولا أزهار لوتس



تطفو فوق البركة التي يشرب منها الطاووس... البركة كلها تبخرت...

ووسط هذا الخراب وبكامل ثيابه الأنيقة المهيبة التي يمكن تلخيصها بكلمة واحدة «الغطرسة» يتقدم «دي جاما» وسط ضباطه متجهًا إلى قصر الراجا...

يخرج الراجا المذهول المرتجف وحوله رجاله، ويمشي للقاء القبطان غير مصدق ما انتهت إليه مدينته الجميلة...

يسمع صراخ قومه من بعيد فيتخيل ما يحدث...

يقف أمام «دي جاما» في ساحة القصر التي لم يصبها الخراب...

شتان ما بين المشهد منذ أعوام والمشهد اليوم... كان «دي جاما» مهذبًا محترمًا برغم كبريائه الشديدة، أما اليوم فهو هنا ليأمر وقد تحرر كبرياؤه من أية قيود...

يقول «دي جاما» عن طريق المترجم:

- «ها نحن نلتقي من جديد...».

قال الراجا في كبرياء:

- «ماذا تريد يا قبطان؟... لا داعي للمقدمات... يمكنك قطع رأسي وتعليق جثتي على «ساريتك» لو أردت... لكن لا ذنب لقومي في هذا... قل لرجالك أن يتوقفوا ولتظفر بتسليتك معي».

- «ها ها ها ها ها !... أنت رجل شجاع لكن ليس رأسك ما أريد...»

وسقطت عيناه الناريتان على التاجر العربي الواقف خلف الراجا، فابتسم في توحش وقال لرجاله:

- «تعرفون ما يجب عمله... خذوه!».

«ما يجب عمله» يعني قطع رأس الرجل وأطرافه وإلقاء كل شيء في البحر...

ثم قال «دي جاما» وهو يجفف عرقه بمنديل

معطر ثمين:

- «أريد طرد أي مسلم من هذه المدينة خلال ساعات قبل أن يأتي الليل... هل هذا شرط عسير؟».

بالطبع لم يجد الراجا مفراً من هذا، ولم ينته اليوم إلا وكان البحر يعج بجثث التجار المسلمين الذين قطع البرتغاليون رؤوسهم وأيديهم وأرجلهم...

***

إن الليل قد جاء لكنه ليس ليلًا بالضبط...

لقد تحولت «كاليكوتا» إلى شعلة برتقالية كبيرة تذكرني بحريق روما الذي رأيته في قصة سابقة.

المرفأ نفسه صار شعلة أخرى...

المساجد الرائعة التي كانت آية في الطراز المعماري الإسلامي عندما يستعرض عضلاته ويظهر لغير العرب كم هو جميل... هذه المساجد صارت كالأرض حتى لم تعد متأكداً من



أنها وجدت أصلا...

لقد غدت «كاليكوتيا» منطقة منكوبة بالمعنى الحرفي للكلمة...

وسط الخرائب

كان المشـهد مروعًـا وأنـا أمـشي وسـط الخرائـب ألتقـط بعـض الصـور.

لم يكـن هنـاك مـن يصغـي اليّ أو يسـمعني... وأوشكت رائحـة الدخـان عـلى خنقـي، الأرض كانـت ساخنة مـن كـثرة النـيران والقذائـف.

ثم سمعت في ظل جدار صوتًا ينادي من أجل جرعة ماء، نظرت هنـاك فرأيـت امـرأة شابة تنزف، تحاول أن تزحـف وهـي تكـرر طلـب جرعـة مـاء.

كانت هنـاك بـئر قريبـة، فبحثـت حتـى وجـدت قطعة مـن قماش بللتهـا مـن مـاء البـئر ثـم عـدت لها ورحـت أعـصر القطـرات في فمهـا، ثـم سـألتها:

- «ما اسمك؟».

- «راميشا...».

- «وأين أهلك؟».

- «كلهم ماتوا... قتلهم البرتغاليون».

ثم أضافت وهي تلهث:

- «الميرانتي... الميرانتي».

- «ماذا به؟».

- «كان ذلك الرجل مخطئًا... «أحمد بن ماجد» ارتكب خطأ جسيمًا... ما كان يجب أن يقود البرتغالي إلى الهند... إلى وطني... إلى مدينتي... إلى أمي... كم تقاضى من أجر مقابل هذا؟».

قلت لها في رفق:

- «ابن ماجد لم يقتل أهلك».

قالت:

- «من الجرم أن تخبر النمر بمكان الخراف... هذا هو ما فعله بحارك العربي الميرانتي، والنتيجة هي أن قومك المسلمين أنفسهم قد طردوا من هنا أو أبيدوا... البرتغال صارت تسيطر على الهند وسوف تظل فيها... كنا نعيش في رغد

وسلام وحب وكانوا لا يعرفون طريقنا. التجار العرب كانوا يعرفون ذلك وقد أسدوا النصح فلم يصدقهم أحد... اليوم هم دفعوا الثمن».

ثم انفجرت في البكاء، وبعد دقيقة أدركت أنها عادت لبارئها فبكيت كثيراً.

مشيت وسط الخرائب وتذكرت كيف كانت «كاليكوتا» عندما رأيتها أول مرة. اليوم الأرض مشتعلة يتصاعد منها الدخان كأنه حفل... فقط هنا تُرقص رقصة الموت وتُعزف ألحان الخراب...

خطر لي هنا أن المصادفة قربت بين حروف اسمي «دي جاما» و«ابن ماجد»... بحاران لكن السبل اختلفت بكل منهما، ولعب أحدهما دور الملاك الساذج بينما لعب الآخر دور الشيطان الذي صبر حتى نال...

لكن ما أكبر الاختلاف بينهما...

نهاية «دي جاما»

هكذا عاد «فاسكو دي جاما» إلى البرتغال تسبقه شهرته، لقد اكتسب صفة الفاتح العظيم والمكتشف العبقري والقائد الحازم الذي لا يصمد حصن أمامه.

حرص الرجل على ملء جيوبه بالذهب والتوابل، لكنه أراد كذلك أن يحتل كتب التاريخ، لذا راح يحكي للمؤرخين عن معاناته إلى أن بلغ الهند، وعن الطريقة العبقرية التي اخترع بها الأسطرلاب والبوصلة «لم يسميها الحقة طبعًا»، وكيف أنه أجاد علم النجوم والاهتداء بأثرها...

صارت تماثيله التذكارية في كل مكان، وأسرته تنعم بالألقاب...

في هذا الوقت أرسل الملك نائبًا اسمه إدواردو دي منديز ليكون نائبه في البرتغال لكنه كان قائدًا ضعيفًا... والسيطرة على الهنود صعبة جدًا؛

لأنهم شعب عنيد، صعب المراس، معتز بنفسه. كان إدواردو يلاقي متاعب لا حصر لها. وقد قال الملك:

- «لا حلّ سوى أن نعيد «فاسكو دي جاما» إلى الهند».

كان هذا هو العام ١٥٢٤... لقد مضت ٢٦ عامًا منذ وصل إلى الهند لأوّل مرّة.

وصل الأمر إلى «دي جاما» أن الملك يأمره بالعودة إلى الهند. فلم يجد مفرًا من العودة لسفنه واتخاذ الطريق إلى الهند عازمًا على ارتكاب سلسلة مذابح جديدة.

لم أره طبعًا، لكن سمعت ممن حوله ومن الأخبار أنه استمر في الرحلة، ثم بدأت حرارته ترتفع ويبدأ يعرق بقوة ويرتجف، حتى أنّ الكلام لم يعد مفهومًا عندما ينطق، لقد أصيب بالملاريا.

لم يكن أحد يعرف الكينين في ذلك الوقت.

وبالنسبة لشخص لم يصب بالملاريا من قبل

كانت المضاعفات خطرة.

وهكذا سقط في غيبوبة، وصار طبيب تلو آخر يدخل ليفحصه ثم يخرج وهو يهز رأسه في قنوط... لا بدّ أنهم أجروا له الكثير من كؤوس الهواء والفصد لكنه في النهاية مات، مات كأي شخص آخر ومثل ضحاياه العرب بالضبط.

كانت السفن قد وصلت إلى الهند فعلاً: فحملوا جثته ودفنوها في الهند، فيما بعد طلبت البرتغال جثته وتم نقله إلى البرتغال ليدفن هناك.

بالنسبة للعرب والهنود هو سفاح...

وبالنسبة للبرتغاليين هو بطل قومي عظيم، وقد ألفوا عن حياته ملحمة اسمها «لا لويسيداس» أي الملحمة الوطنية للبلاد... وفيما بعد أطلق اسمه على إحدى فوهات القمر...

الميرانتي من جديد

«ينبغي إن ركبت البحر أن تلزم الطهارة فإنك في السفينة ضيف من ضيوف الباري عز وجل، فلا تغفل عن ذكره».

أحمد بن ماجد

كنت أعرف أن مهمتي انتهت تقريبًا، والتحقيق الصحفي الذي كلفت به قد انتهى، لكنني بحسي الصحفي كنت أدرك أنه لا بد من لقاء أخير مع «ابن ماجد» لأعرف رأيه في كل هذا.

كان عليّ أن أجد آلة الزمن في قاع سفينة برتغالية، فآلة الزمن تتيح لي السفر عبر المسافات كما تتيح لي السفر عبر الأمكنة، وقد قدرت أن «ابن ماجد» عاد إلى «جلفار» بعد الحج.

لقد مضت أعوام طويلة على اكتشاف سواحل الهند، وقد شاخ الرجل كثيرًا.

ذهبت لألقاه وسألت عن بيته فهداني الناس.

وقفت على الباب فوجدته يفترش الأرض وقد بلّل ريشته بالمداد بينما يرقص اللهب في المصباح المجاور له.

كان يتكلم وهو يكتب مما جعل من السهل أن أعرف ما يكتبه، كان يتكلم عن الربابنة الآخرين:

- «غير أن خبرتهم مع ذلك محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من «سيراف» إلى «برمكران»، وساروا يسألون عن كل برٍّ أهله ويؤرخون، وكان في زمانهم من المعالمة المشهورين عبد العزيز بن أحمد المغربي وموسى القندراني وميمون بن خليل، فكان في زمانهم من النواخذة[1] المشهورة أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي الفضل بن أبي المصري... فيأخذون من كل أحد بره وبحره ويؤرخونه فهم مؤلفون لا مجربون».

كان ينتقد الدارسين الذين لا يملكون الخبرة، ينقلون من كتب الآخرين لكنهم لا يجربون، جلست إلى جواره فلم يلحظ وجودي وواصل

---

١ النوخذة: هو قبطان يقود السفن عبر البحار.

الكتابة:

«إن لركوب البحر أسبابًا كثيرة فأهمها وأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها، وكذلك مواسم البحر والآلات السفينية وما يحتاج إليها وما ينفعها وما يضطر إليها في ركوبها، وينبغي أن تعرف المطالع والاستوائيات، وجلسة القياس في كل طريقة وأن تكمل جمع الآلة في السفينة، وتتفقد الحمولة في أحضان السفينة ورجالها، ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع في مركب لا يطاع فيه، ولا مركب بغير اعتداد، ولا في موسم ضيق».

لم أكن أعرف أن الأخنان هي الاتجاهات والباشيات هي قياس العمق، والدير هي الشواطئ، وموسم الضيق هو ما قبل العاصفة. كان قد فرغ لتوه من مهمة إرشاد صعبة أخرى هي الوصول بسفينة من مضيق هرمز إلى جدة... وقد اتخذ طريقًا بعيدًا عن الشاطئ، وهذا برغم

مقاومة الرياح الشمالية له.

أعدّ لي بعض الشاي على موقد من ثلاثة أحجار، ثم صبّ لي في قدح خزفي وناولني لقيمات من الخبز.

ثم إنه تناول كتابه الذي فرغ الخطاط من زخرفة كعبه...

«الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»

هذا هو الكتاب الذي سيخلد اسمه في علم البحار، والذي ألفه في ثمانية أعوام...

في هذا الكتاب وصف أصول الملاحة وحجر المغناطيس ومنازل القمر والنجوم التي تقابل أقسام الإبرة المغناطيسية الاثنين والثلاثين. كما أنه وصف الثغور في المحيط الهندي والبحر الصيني وساحل الهند الغربية وجزيرة العرب وجزيرة القمر وجزيرة البحرين، كما يصف البحر الأحمر بالتفصيل.

إنه واحد من أربعين كتابًا عن البحر... كلها

كتبت بالشعر لتسهيل حفظها...

يتناول كتابًا آخر ويرمقه في رضا...

«حاوية الاختصار في أصول علم البحار»

قد راح عمري في المطلعات

وكثرة التساؤل في الجهات

وكم رأيت في خطوط الشول

ونظمهم والنثر والفصول

وكم نظرت في الحساب العربي

وحسبة للهند مذ كنت حبي

أحمد بن ماجد

لست نادمًا

سألته وأنا أشرب الشاي الهندي عَطِر الرائحة:

- «ألستَ نادمًا على الجميل الذي قدمته لـ«دي جاما»؟... يقولون إنك أخبرت النمر بمكان الحملان».

قال وهو يرمق حروف كتابه بعينين لا تريان تقريبًا:

- «نعم... لستُ نادمًا... عندما قابلتُ «دي جاما» لم أفعل سوى ما يجب أن يقوم به البحار لبحار آخر...».

- «كنت سمعت عن البرتغاليين وفظائعهم...».

- «إن من صنع السيف قد تسبب في إراقة دماء غزيرة لكننا لا نلومه بل نلوم من يقتل بالسيف...».

ثم تحسس رأسه بكفيه وبدا وكأنه مرهق

جدًا... وقال:

- «نخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم في القلوب».

لم أفهم ما يريد قوله فقال بعبارة أقرب لفهمها:

- «أخاف أن أموت ومازال عندي بعض العلم لم أنقله لمن يأتي بعدي... سوف يؤلف ابني كتابًا عن البحر... وسوف يبحر البحارة في الملايو حاملين كتابًا اسمه «قواعد ابن ماجد»... لكن مازال عندي الكثير».

ثم شرد ذهنه وهو يتذكر شبابه:

- «كابو... ما كان لي أن أعرف ما سيحدث... ما كنت أعرف بحور الدم الذي ستنفجر، لكني قمت بواجبي نحو بحار مثلي طلب العلم، ولسوف يذكر التاريخ أنني لم أقدمه للهند إلا من أجل المنفعة العامة».

المره يشعر بحيرة بين الفخر بأن «ابن ماجد»

قاد البرتغاليين إلى الهند، وبين الدفاع عنه بكونه لم يفعل... ما زالت القضية ساخنة تعقد من أجلها المؤتمرات العلمية... في لشبونة عام ١٩٩٨ عقدت ندوة «ابن ماجد» والغرض منها تبين الحقيقة... وهناك ندوة حول «تاريخ العلوم عند العرب» عقدت في اللاذقية بسوريا... وهناك مؤتمر «عمان في التاريخ»...

قال لي «ابن ماجد» باسمًا:

- «أنت رأيت كل شيء وشهدت على كل شيء... الآن أتمنى أن تكتب عني مقالًا منصفًا».

لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية إرسال المقال له في زمنه، لكنني وعدته بأن يكون المقال عادلًا ودقيقًا.

نظر خارج النافذة إلى الخليج حيث ترسو بعض مراكب الصيادين في ضوء الغروب الخافت الباعث على الشجن، وقال:

- «ما يبقى من المرء هو ذكره وكتاب أضافه



وسـفينة نجـت مـن الإعصـار بفضـل تعليماتـه... فيـما عـدا ذلـك لا قيمـة لـشيء دنيـوي...».

ثم تنهّد في عمق وأضاف:

- «فاسـكو دي جامـا» ظفـر بأشـياء كثـيرة بـدوره... تماثيلـه في كل مـكان واسـمه في كل الكتـب... سـوف نلتقـي هنـاك مـن الجانـب الآخـر ووقتهـا نعـرف مـن المنتـصر حقًّا...».

وهزّ رأسه في نفاذ صبر:

- «أرجـو أن تذهـب فلـديّ الكثـير مـما يجـب أن أدوّنـه».

هنـاك عـلى البـاب وقفـت طويـلًا أرمـق الشـيخ الجالـس أمـام قرطاسـه يـدوّن مـا يذكـره مـن علـوم البحـار.

وَفـوق رمـال السـاحل... هنـاك... تقـف سـفينة الصيادين وبحارتهـا وهـم يتأهبـون للإبحـار...

يقف «المعلّـم» ورئيـس البحـارة ممسـكًا بالدفة... يرفعون الهلـب وتبـدأ السـفينة تتوغـل في البحـر

فيرفع عقيرته صائحًا:

- «الفاتحة لابن ماجد!».

نعم... الفاتحة لـ «ابن ماجد»... المعلّم... أسد البحار... الميرانتي...

وما زال البحارة في الخليج يقرؤون الفاتحة لـ «ابن ماجد» كلما بدأت رحلتهم.

لقد حان وقت العودة.

كنت قد أخفيت آلة الزمن في كهف حصين، فاتجهت نحوها وضغطت على زر العودة إلى زمني... إلى القرن الحادي والعشرين.

الميرانتي

أمير البحار

تقلع السفينة فاردة شراعها مغادرة ماليندي.

في الأيام التالية أصبت بدوار بحر رهيب. لكن حينما استطعت أن أتمالك نفسي أخيرا بدأت أراقب سير الأمور.

كان "دي جاما" فظًا خشنًا وهذا يتناسب مع مسؤولياته الكثيرة. لكنه بالفعل معجب بذلك العربي "ابن ماجد" الذي صار مرشد الرحلة إلى الهند. وكان من حقه أن يقابل القبطان متى شاء.

لقد صار وجه "ابن ماجد" مألوفا هنا بجسمه الضئيل وعمامته وضحكته. وقد سماه البرتغاليون "المعلم الفلكي". لم يستطيعوا نطق العبارة فخرجت من أفواههم "ماليمو نكا". كذلك حاولوا تسميته "أمير البحار" فخرجت الكلمة "الميرانتي".

الآن عرفت من أين جاء هذا الاسم الغريب. "الميرانتي" هو نفسه "أحمد بن ماجد".





9 789778 200867